10

الجزء العاشر

التحادث مع العدو

-٨٧-

يقع سجن بولسمور للحالات الأمنية القصوى على حافة ضاحية بيضاء غنية تدعى توكاى إلى الجنوب الشرقى من كيب تاون. وتحيط بالسجن مناظر الكيب الخلابة. ولكن ذلك الجمال تحجبه عن السجناء أسوار إسمنتية. وفى بولسمور فهمت مقولة أوسكار وايلد عن الخيمة الزرقاء التى يسمى بها السجناء السماء.

وتم فصلنا هناك عن سجناء القسم العام. ولم يكن هناك سجناء سياسيون غيرنا. وكانت معاملتنا مختلفة. فمنح أربعتنا ملحقا للسجن عبارة عن غرفة متسعة على السطح فى الطابق الثالث وكنا السجناء الوحيدين فى ذلك الطابق. وكانت الغرفة نظيفة وحديثة وكان بها ملحقاتها من الحمامات والمراحيض. وكان بالغرفة أربعة أسرّة وضعت عليها ملاءات ومناشف وكان ذلك رفاهية لرجال قضوا الثمانية عشر عاما السابقة ينامون على الأرض. وكانت هناك شرفة ذات مساحة ضخمة سمح لنا بالخروج إليها أثناء النهار. ولم يكن بإمكاننا رؤية أى شئ سوى السماء نظرا لأسوارها العالية. ورغم وجودنا فى قلب القارة فقد شعرنا بالعزلة لأن الجزيرة بالنسبة لنا كانت مركز المعركة.

وكان النقل على ما يبدو استراتيجيا فقد أرادت السلطات قطع رأس المؤتمر على الجزيرة بنقل قادته لكى تحرم الجزيرة من أهميتها الرمزية بعد أن أصبحت أسطورة تدعم المقاومة. وكنت أنا و وولتر وريموند أعضاء فى القيادة العليا على الجزيرة لكن لم نجد سببا لوجود ملانچينى وكان هذا يعنى أن استخباراتهم عن التنظيم لم تكُن صحيحة. وتأكد حدسنا بعد أن لحق بنا كاثرادا بعد شهور قليلة. ثم لحق بنا شخص لم نكن نعرفه يدعى باتريك مافابيللا وكان محاميا شابا من المؤتمر من شرق الكيب تاون ومحكوما عليه بالسجن عشرين سنة وقد نقل من سجنه لنشاطه فى عمل تنظيمات سرية.

ورغم أننا كنا نعيش فى عالم من الإسمنت فقد كانت ميزات المكان الجديد أفضل فقد كان الطعام أحسن وكان بإمكاننا قراءة العديد من الصحف والمجلات التى كانت ممنوعة مثل التايم والجارديان من لندن وكان لدينا مذياع يتلقى المحطات المحلية فقط. وكانت الغرفة الرئيسية لها ملحق صغير استعمل كغرفة دراسة وبه مكتب وأرفف كتب. وكنت أقوم بممارسة الرياضة فى الغرفة الواسعة.

وحضرت وينى لزيارتى عقب نقلى وكانت مساحة الزيارة أفضل بكثير

منها فى الجزيرة والرقابة أخف.

وكان مأمور السجن البريجادير مونرو شخصا بذل جهده لنحصل على ما كنا نطلبه. ورغم ذلك حدثت مشاكل ضُخِّمت أضعاف حجمها. فقد شكوت مرة لوينى أن الحذاء الذى تسلمته أصغر من حجم قدمى وسمعت بعد ذلك أن التقارير الصحفية قالت إنه ستجرى لى عملية لبتر إصبع قدمى وجاءت هيلين سوزمان لزيارتى فى السجن وأريتها إصبعى سليما معافا. وحدث أن شكونا من رطوبة الغرفة ونشرت الصحف أن زنزانتنا قد أغرقتها المياه.

وفى مايو ١٩٨٤ حدث تغيير سبب لى الكثير من الارتياح فقد سمح لنا بالالتقاء المباشر مع الزائرين وحدث ذلك عند زيارة وينى وزينى وابنتها الصغرى حيث سمح لنا بالتواجد فى نفس الغرفة وعانقت زوجتى وابنتى لأول مرة منذ واحد وعشرين عاما.

-٨٨-

وفى بولسمور كنا على اتصال بالأحداث الخارجية وكنا نعلم أن المقاومة تتصاعد وكذلك مجهودات العدو. ففى عام ١٩٨١ قامت القوات الجوية لجنوب إفريقيا بالهجوم على مكاتب المؤتمر فى موزمبيق حيث قتل ثلاثة عشر من رجالنا، وفى ديسمبر ١٩٨٢ فجر رجال الـMK محطة طاقة نووية لم تكتمل خارج كيب تاون وزرعوا قنابل فى مواقع عسكرية وأهداف للأبارتايد. وفى نفس الشهر هاجمت قوات جنوب إفريقيا مواقع للمؤتمر فى لوسوتو وقتلت اثنين وأربعين شخصا بينهم نساء وأطفال

وفى ١٩٨٢ كانت المناضلة روث فيرست تفض خطابا لها حينما انفجرت فيها متفجرات كانت داخل الخطاب. وكانت وقت ذلك تعيش فى مابوتو فى المنفى وكانت زوجة جو سلوفو. وعاشت مناضلة مناهضة للأبارتايد وقضت شهورا عدة بالسجن وكانت ذات شخصية قوية جذابة وكنت قد التقيت بها أول مرة فى جامعة Wits.

واستعملت MK قنابل السيارات لأول مرة فى مايو ١٩٨٣ وكان ذلك ضد قوة دفاع جوى ومكتب عسكرى فى قلب بريتوريا انتقاما للهجوم على المؤتمر فى الخارج وتصعيدا للعمليات العسكرية وقتل تسعة عشر شخصا وجرح مايربو على المائتين. وعبر أوليفر عن الموقف فى ذلك الوقت قائلا إن المعركة العسكرية قد فرضت علينا بواسطة عنف نظام الأبارتايد.

وكانت الحكومة والمؤتمر فى ذلك الوقت يعملان فى اتجاهين: الاتجاه العسكرى والاتجاه السياسى. فعلى الصعيد السياسى كانت الحكومة تتبع سياسة فرق تسد لتفصل بين الهنود والملونين والأفارقة. فحاول بوثا أن يعطى الهنود والملونين امتيازات انتخابية ولكن ذلك لم يخدع الناس إذ قاطع ثمانون فى المائة منهم الانتخابات.

وتكونت حركات قاعدية سياسية جديدة فى داخل البلاد ذات صلات وثيقة بالمؤتمر مثل حركة الجبهة الديمقراطية المتحدة التى نصبونى راعيا لها وضمت أكثر من ستمائة منظمة مناهضة للأبارتايد وكان لها نشاطات سياسية واسعة. وكان المؤتمر يشهد ميلادا وشعبية جديدين.

وأثبتت استطلاعات الرأى أن المؤتمر يتصدر قائمة المنظمات الأخرى بين الأفارقة رغم حظره لربع قرن ويتفوق عليها بكثير. وكانت حركة الأبارتايد ككل قد حازت اهتمام العالم وفى عام ١٩٨٢ منح الأسقف توتو جائزة نوبل للسلام. وأصبحت السلطة تحت ضغط دولى متنام حيث أخذت الدول فى جميع أنحاء الأرض فى فرض الحظر الاقتصادى على بريتوريا.

وعلى مر السنوات كانت الحكومة ترسل لى مستطلعين بدءا بمجهودات الوزير كروجر لإقناعى بالانتقال إلى ترانسكى. ولم تكن تلك محاولات للتفاوض بل وسائل لعزلى عن منظمتى ورغم عدم استجابتى لتلك المحاولات فقد كان بالإمكان رؤية محاولاتهم للتفاوض بدلا من الهجوم مقدمة لتفاوضات حقيقية.

وأخذت الحكومة تختبر الموقف فخلال عامى ١٩٨٤، ١٩٨٥ تلقيت زيارتين من رجلى دولة مهمين أولهما اللورد نيكولاس بثل عضو مجلس اللوردات البريطانى والبرلمان الأوروبى وثانيهما صامويل داش أستاذ القانون بجامعة جورج تاون والمستشار السابق للجنة مجلس الشيوخ بشأن ووترجيت.

وكانت كلتا الزيارتين قد صرح بهما وزير العدل الجديد كوبى كوتسى الذى كان نوعا جديدا من القادة الأفريكان وتحدثت عن الأوضاع فى السجون مع لورد بثل وعن بولسمور والمقاومة المسلحة وأخبرته أنه بإمكان الحكومة إنهاء أعمال العنف وقلت له إننا نستهدف المنشآت

العسكرية وليس الأفراد. وفى لقائى مع البروفسور داش عرضت تصورى للحد الأدنى لجنوب إفريقيا لاعرقية تكون دولة موحدة دون مَواطن للأعراق المختلفة وتجرى فيها انتخابات لبرلمان مركزى حيث يكون لكل فرد صوت انتخابى وأكدت أن ما نريده هو المساواة السياسية وقلت له بصراحة إننا فى الواقع لا نستطيع هزيمة الحكومة عسكريا ولكن بوسعنا جعل حكمها صعبا. وزارنى رئيس تحرير الواشنطون بوست المحافظة التى كان هدفها ليس هو الاستماع لما أقول بقدر إثبات أننى شيوعى إرهابى وأننى لست مسيحيا لأن القس مارتن لوثر كينج لم يلجأ إلى العنف. فبينت له أن جنوب إفريقيا ليست دولة ديمقراطية مثل أمريكا بل دولة دستورية يتوج دستورها عدم المساواة ويرد جيشها على عدم استعمال العنف بالقوة.

وفى مواجهة الاضطرابات فى الداخل والضغوط من الخارج اتخذ بوتا خطوة فاترة مترددة. فقد أعلن فى البرلمان أنه مستعد لإطلاق سراحى إذا أنكرتُ العنف كأداة سياسية وقال إن ذلك ينطبق على جميع السجناء السياسيين الآخرين. وكان ذلك سادس عرض مشروط من الحكومة خلال عشر سنوات. وبعد الاستماع إلى الخطاب طلبت السماح لزوجتى ومحامىي إسماعيل أيوب بالزيارة لإملاء الرد ولم يُسمح لها بالزيارة إلا بعد أسبوع كنت فى خلاله قد كتبت الرد إلى وزير الخارجية بيك بوثا رفضتُ فيه أى اشتراطات لإطلاق سراحى وأعددت إعلانا عاما حرصت فيه على ذكر عدة أشياء لأن هدف بوتا كان التفريق بينى وبين زملائى وقد أردت أن أؤكد للمؤتمر عامة

وأوليفر خاصة ولائى الخالص للمنظمة وكنت أيضا أود إفهام الحكومة أنه رغم رفضى العرض فإنى أعتقد أن المفاوضات وليست الحرب هى السبيل للحل. وكنت أيضا أوضح أننى إذا خرجت من السجن فى نفس الظروف الذى اعتقلت فيها فإننى سأقوم بنفس الممارسات التى أدت إلى سجنى.

وقابلت وينى وإسماعيل يوم الجمعة وكان يوم الأحد قد حُدد لمظاهرة فى استاد سويتو يعلن فيها ردى. وأعطيت وينى وإسماعيل الكلمة التى أعددتها وكنت أيضا أود أن أوجه شكرى إلى الجبهة الديمقراطية المتحدة على أعمالها الرائعة وأهنئ الأسقف توتو على الجائزة. ويوم الأحد ١٠ فبراير ١٩٨٥ قرأت ابنتى زيندزى ردى على الجماهير المهللة التى لم يكن بإمكانها سماع أى كلمة منى فى أى مكان من جنوب إفريقيا لمدة تربو على العشرين عاما.

وكانت زيندزى متحدثة ديناميكية مثل والدتها. وقالت إن والدها كان يجب أن يكون فى الاستاد ليتكلم بنفسه. وجاء فى كلمتى أننى عضو بالمؤتمر وسأظل عضوا فيه إلى وفاتى وأن أوليفر تامبو أكثر من شقيق لى وأعلم أنه من الممكن أن يضحى بحياته ليرانى حرا. وأضفت أن الشروط التى تريد الحكومة فرضها تسبب لى الدهشة لأننا لم نسلك طريق العنف إلا بعد أن سدت أمامنا جميع طرق المقاومة. وأن على بوثا أن يبرهن أنه مختلف عمن سبقوه ويترك العنف ويلغى الأبارتايد ويطلق سراح السجناء والمنفيين لمعارضتهم للأبارتايد ويضمن حرية النشاط السياسى ليتمكن الشعب من تقرير من يحكمه. وقلت: إننى

أحرص على حريتى لكنى أحرص بالتأكيد على حريتكم ولست أقل حبا منكم للحياة ولكنى غير مستعد لبيع حق مولدى أو حق مولد شعب لأحصل على حريتى. فماذا تعنى تلك الحرية بينما تحظر المنظمة التى أنتمى إليها. أو بينما يمكن أن يلقى القبض علىّ لعدم حملى تصريحا للمرور. أو بينما زوجتى منفية فى براندفورت أو بينما يجب أن أطلب تصريحا لأسكن فى منطقة مدنية أو بينما لا تحترم مواطنتى فى جنوب إفريقيا. إن الأحرار هم الذين يستطيعون التفاوض ولا يمكن للسجناء الدخول فى اتفاقات. فأنا لا أستطيع ولن أتعهد بشئ فى وقت أنا وأنتم لسنا أحرارا فلا يمكن الفصل بين حريتكم وحريتى.

وسأعود.

-٨٩-

تقرر دخولى المستشفى فى عام ١٩٨٥ فى كيب تاون لإجراء عملية البروستاتا تحت حراسة مشددة. طارت وينى لرؤيتى قبل إجراء العملية. ولكنى تلقيت زيارة أخرى أدهشتنى فقد حضر كوبى كوتسى وزير العدل بحجة زيارة صديق له فى المستشفى. ولقد كنت قد كتبت إليه خطابا دعوته للقاء لمناقشة إجراء محادثة بين المؤتمر والحكومة. فقد كانت الحكومة قد تبينت أنها لابد وأن تصل إلى اتفاق مع المؤتمر وكانت زيارته هى غصن الزيتون.

وبعد شفائى حضر المأمور لاصطحابى وكان ذلك أمرا غير عادى. وأخبرنى أننى لن أذهب إلى رفاقى بل ساقيم بمفردى. وعند وصولى

إلى السجن ساقونى إلى زنزانة فى قسم مختلف تماما. فقد كانت عبارة عن جناح من ثلاث غرف وحمام ولم أستطع فى البداية استيعاب سبب التغيير. لكن فى الأسابيع التى تلت تفهمت وضعى الجديد الذى قررت أنا أن أستغله لبدء محادثات مع الحكومة فقد رأيت أن الوقت قد حان لدفع عجلة النضال من خلال المفاوضات مستغلا فرصة وحدتى.

فقد كان قد مر علينا خمسة وسبعون عاما من النضال ضد حكم الأقلية البيضاء. كما كان قد مر ما يربو على عقدين على بدء القتال المسلح. وقد مات أناس كثيرون من الجانبين. أما العدو فكان قويا وعنيداً. لكن رغم عنادهم فلابد وأنهم قد أدركوا أنهم على الجانب الخطأ فى التاريخ ورغم أن الحق كان معنا لم نكن نملك القوة بعد وكان من الواضح أن النصر العسكرى بعيد إن لم يكن مستحيلا. ولم يكن من الحكمة للجانبين أن يفقدوا الآلاف إن لم يكن الملايين فى معركة غير ضرورية. ولابد أنهم أدركوا ذلك. وقد حان الوقت للحديث وكان كل من الجانبين ينظر للنقاش على أنه نوع من الضعف وكانت الحكومة قد أعلنت مرارا أن المنظمة إرهابية شيوعية ولا يمكن التحادث معها وكان المؤتمر قد أكد مراراً أن الحكومة فاشية عنصرية وأنه لا يوجد موضوع نقاش حتى يرفع الحظر عن المؤتمر ويطلق سراح جميع المسجونين السياسيين بدون شرط وتنسحب القوات من المناطق الإفريقية.

وكان يجب أن يتخذ القرار فى لوساكا ولكنى شعرت أن العملية يجب أن تبدأ وأنه ليس هناك وقت أو وسيلة للاتصال بأوليفر. وكان عزلى

الجديد يوفر لى الحرية أن أتحرك تحت ستار من الجدية.

وقررت ألا أنبئ أحداً بما أنا فاعله حتى زملائى فى نفس السجن الذين كنت أعرف أنهم سيستنكرون اقتراحى ويحكمون على المبادرة بالإعدام قبل أن تولد. وأن هناك أوقاتا يجب على القائد أن يستبق الرعية ويسير فى اتجاه جديد وهو واثق أنه يقود السفينة فى طريق النجاة.

وكان عزلى أيضا يمكن منظمتى من التماس العذر فى حالة فشل المساعى بأن يقال إن الرجل العجوز كان منعزلا واتخذ خطواته بصفة شخصية وليس كممثل للمؤتمر.

-٩٠-

وفى خلال أسابيع أرسلت لكوتسى اقتراحا بأن نتحادث بشأن بدء مفاوضات وكالمرة السابقة لم أتلق ردا. وكتبت مرة أخرى دون استجابة. وقررت أن أتحين فرصة أخرى وقد واتتنى فى بدء ١٩٨٦.

ففى اجتماع الكومنولث فى أكتوبر ١٩٨٥ لم يستطع قادته التوصل إلى قرار بشأن فرض العقوبات على جنوب إفريقيا لمعارضة مارجريت ثاتشر الشديدة لذلك. وللخروج من المأزق تقرر إرسال وفد على مستوى عال لزيارة جنوب إفريقيا لتقرير ما إن كانت العقوبات أداة صحيحة لإنهاء الأبارتايد. فى بداية ١٩٨٦ وصلت مجموعة السبعة أشخاص بقيادة الجنرال أوسانجو وهو قائد حربى سابق لنيجيريا، ورئيس استراليا السابق مالكولم فريزر إلى جنوب إفريقيا لتقصى

الحقائق.

وفى فبراير زارنى أوسانجو لبحث طبيعة تقرير الوفد وكان حريصا على أن يسجل لقائى بالمجموعة كلها وأدرجت المقابلة فى مايو بموافقة الحكومة. وبعد ذلك كان مقررا للمجموعة أن تتحدث إلى مجلس الوزراء ووجدت ذلك فرصة لاقتراح المفاوضات.

وقد رأت الحكومة أن اجتماعى مع المجموعة مناسبة غير عادية فزارنى البريجادير مونرو وبرفقته حائك لأخذ مقاساتى قبل الاجتماع بيومين. وقال إنهم يريدون لى أن أقابل هؤلاء الناس على وجه المساواة ولا يريدون لى أن أقابلهم بثياب السجن. وبعد يومين أحضر الحائك حلة أنيقة كما منحت قميصا وربطة عنق وزوجا من الجوارب وملابس داخلية. وقال المأمور يومها إننى أبدو رئيسا للوزراء وليس سجينا.

ولحق بنا مراقبان فى لقائى مع المجموعة هما كوتسى ووليمس رئيس السجون. ولكن الأمر الغريب هو أنهما انصرفا عقب بداية الاجتماع وحاولت معهما أن يبقيا فرفضا وقلت لهما إن الوقت قد حان للتفاوض بدلا من الاقتتال وإن المؤتمر والحكومة يجب أن يجلسا للتحادث.

وجاءت المجموعة بأسئلة كثيرة تتصل بقضايا العنف والمفاوضات والعقوبات الدولية. وفى البداية أرسيت قواعد للمناقشة قائلا إننى لست رئيس الحركة وإن الرئيس هو أوليفر تامبو فى لوساكا ولابد لهم من اللقاء به وأن آرائى شخصية وإنى لا أمثل حتى آراء زملائى فى السجن وبعد كل شئ فأنا أفضل أن يبدأ المؤتمر محادثات مع

الحكومة.

وكان بعض أعضاء المجموعة قلقا بشأن أيديولوجيتى السياسية وماذا ستكون عليه جنوب إفريقيا تحت قيادة المؤتمر وشرحت لهم انتمائى القومى الإفريقى وأننى غير شيوعى وأن القومية الإفريقية تضم تحت لوائها أشخاصا من مختلف الأعراق والنحل وعن إيمانى بميثاق الحرية الذى يجسد مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان وذكرت اهتمامى بأن تشعر الأقلية البيضاء بالأمان فى جنوب إفريقيا وإيمانى أن المشاكل القائمة يمكن حلها عن طريق المفاوضات. وبينما لم أستنكر العنف فقد قلت لهم إن العنف لن يوجد الحل النهائى للوضع فى جنوب إفريقيا واقترحت أن تسحب الحكومة الجيش والشرطة من المناطق الإفريقية.

وفى تلك الحالة يمكن للمؤتمر الموافقة على تعليق المعركة العسكرية تمهيدا للمفاوضات.

وكانت خطة المجموعة بعد ذلك أن تقابل أوليفر فى لوساكا ومسئولى الحكومة فى بريتوريا وكانت ملاحظاتى قد احتوت على رسائل للطرفين. ثم تجتمع اللجنة بى مرة أخرى فى مايو وكنت متفائلا بعد أن زارت اللجنة لوساكا وبريتوريا من بدء المفاوضات. ولكن فى اليوم السابق للاجتماع بأعضاء مجلس الوزراء، وبناء على أوامر الرئيس بوتا أغارت قوات دفاع جنوب إفريقيا وقوات فدائييها على قواعد المؤتمر فى بوتسوانا وزامبيا وزيمبابوى مما سمم جو المحادثات.

دعا أوليفر تامبو ورجال المؤتمر شعب جنوب إفريقيا أن يجعلوا البلد مكانا لا يمكن السيطرة عليه وأطاع الناس الدعوة ووصلت حال القلق والعنف أقصاها واشتعلت الفوضى فى الأماكن الإفريقية وكان الضغط الدولى يقوى كل يوم. وفى يونيو ١٩٨٦ فرضت الدولة حال الطوارئ كمحاولة للتحكم فى الاحتجاج وبدأت الظواهر تنبئ عن استحالة التفاوض. ولكن غالبا ما تكون اللحظات الأكثر إحباطاً هى ذاتها المناسبة للمبادرات. وكتبت خطابا إلى ويلمس رئيس السجون لمقابلته وحينما التقينا قلت له إننى أرغب فى مقابلة وزير العدل لأبحث إمكانية التعاون فى كيب تاون وقال إنه سيدرس الإمكانية وبعد مكالمة هاتفية مع الوزير أخبرنى أنه طلب منه أن يحضرنى إليه.

وقضيت مع الوزير ثلاث ساعات فى قصره وبدا مرحبا وبودا منصتا. وكانت أسئلته تبين مدى إلمامه بالقضايا التى تفصل بين الحكومة والمؤتمر وسألنى عن الظروف التى نتطلبها لإيقاف المعركة العسكرية وإن كنت أتحدث نيابة عن المؤتمر وإن كنت قد كونت تصورا عن الضمانات الدستورية للأقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة. وسألنى عن الخطوة التالية فقلت له إننى أريد أن ألتقى برئيس الجمهورية ووزير خارجيته بيك بوتا فقال إنه سيرسل طلبى عن طريق القنوات الصحيحة وصافحنى وعدت إلى زنزانتى.

لم أبلغ أى أحد فقد أردت للأمور أن تبدأ قبل إخبار الآخرين، فأحيانا يكون من الضرورى أن يعرض المرء على زملائه خطة سياسية كأمر

واقع وكنت أعرف أن زملائى فى بولسمور ولوساكا سيوافقوننى بعد دراسة الموقف لكن بعد تلك البداية المبشرة مرت شهور دون أن يأتينى رد من كوتسى وكتبت له مرة أخرى.

-٩١-

رغم أننى لم أتلق ردا من كوتسى فقد كانت هناك مؤشرات أخرى إلى أن الحكومة كانت تستعد لوجود مختلف. ففى اليوم السابق لكريسماس دخل نائب مأمور سجن بولسمور إلى زنزانتى بعد الإفطار وعرض أن يصطحبنى لنزهة فى المدينة ورغم عدم فهمى قبلت عرضه. وسرت أنا وهو خلال الخمس عشرة بوابة التى تفصل زنزانتى عن المدخل حيث كانت سيارته فى انتظارنا وأخذ يتجول بى فى المدينة وشعرت كأنى سائح متشوق فى بلاد غريبة مميزة. وسألنى إن كنت أريد شرابا باردا ولما أومأت اختفى فى محل وجلست بالسيارة منفردا لأول مرة منذ عشرين عاما بدون حراسة وراودتنى فكرة الهرب خاصة وأننى لاحظت منطقة غابات قرب المكان الذى توقفنا به ولكننى رأيت أن مثل ذلك الفعل غير حكيم ولا مسئول بجانب خطورته. وشعرت بالراحة حينما عاد بعلبتين من شراب الكوكاكولا.

كانت تلك أول رحلة. وخلال الأشهر التى تلت ذهبت مع نائب المأمور إلى المدينة مرارا وإلى أماكن سياحية خارج المدينة وإلى الشواطئ والجبال وبعد ذلك أخذ يسمح لضباط أقل رتبة بمرافقتى وأخذنا نرتاد المقاهى وكنت حينئذ أحاول أن أرى إذا ما كان بالإمكان لأحد أن

يتعرف على ولكن لم يحدث ذلك فلم يحدث أن نشرت لى صورة منذ عام ١٩٦٢.

وكان لتلك الرحلات أثرها التثقيفى فقد رأيت الحياة وقد تغيرت ونظرا لأننا كنا نذهب إلى مناطق البيض فقد رأيت الثراء غير العادل والرفاهية التى يتمتعون بها. ورغم الاضطرابات التى كانت تعم البلاد ورغم أن مناطق السود كانت على حافة الحرب المعلنة فلم تتأثر حياة البيض وسارت فى سلاسة واطمئنان.

وكنت أعلم أن السلطات لها دوافع غير تسليتى. فقد أحسست أنهم أرادوا لى أن أتأقلم على الحياة فى جنوب إفريقيا وفى نفس الوقت أعتاد على المتعة التى يوفرها لى ذلك القدر الضئيل من الحرية وأصبح مستعدا لتقديم التنازلات فى سبيل الحصول على حريتى كاملة.

-٩٢-

أعدت الاتصال بكوتسى عام ١٩٨٧ وعقدنا عدة لقاءات سرية فى قصره. وفى الجزء الأخير من ذلك العام تقدمت الحكومة بأول مقترحات ملموسة لها.. فقال كوتسى إن الحكومة تود أن تعين لجنة من كبار المسئولين لإجراء محادثات سرية معى وأن ذلك سيكون بعلم من رئيس الجمهورية وسيكون كوتسى رئيسا لتلك اللجنة وستضم ويلمس مدير السجون ود. نيل بارنارد وهو أكاديمى سابق وكان يعمل رئيسا لجهاز المخابرات القومى. وبما أن هؤلاء على علاقة بنظام السجون فلو حدث وتعثرت المفاوضات أو تسربت أنباؤها إلى الصحافة

يصبح بالإمكان تغطية الأمر بالقول إننا كنا نبحث أحوال السجون.

وكان وجود بارنارد من دواعي قلقي فقد كان على صلة بالمخابرات العسكرية وكان من الممكن تبرير مناقشاتي مع الآخرين لمنظمتي لكن وجوده كان سيجلب المشاكل ويتطلب برنامج عمل أكثر اتساعا وأخبرت كوتسي أنني سأفكر في الاقتراح تلك الليلة. ودرست تشعبات الموقف جميعها فقد كنت أعلم أن بوثا قد أوجد نظاما يدعى مجلس أمن الدولة وهو سكرتارية مبهمة مشبوهة مكونة من خبراء أمنيين وبعض مسئولي المخابرات. وكان قد فعل ذلك، كما قالت الصحف، ليتحاشى سلطة مجلس الوزراء وليزيد من قوته. وكان د. بارنارد الشخص الأساسي في ذلك التنظيم. وفكرت أنني إذا رفضت بارنارد فسأنفر بوثا وإذا لم ينضم رئيس الجمهورية للمباحثات فإن شيئا لن يحدث. وفي الصباح أخبرت كوتسي أنني قبلت اقتراحه.

وكان أمامي أمور حرجة ثلاثة عليَّ معالجتها: أولا استطلاع رأي زملائي في الدور الثالث قبل بداية المحادثات وثانيها وكان أساسيا هو الاتصال بأوليفر في لوساكا بشأن ما يحدث ثم كتابة مذكرة لبوثا عن آرائي وآراء المؤتمر بشأن القضايا الحيوية التي تواجه البلاد تكون بمثابة نقاط محادثات لدى حدوث مناقشات مستقبلية.

وطلبت مقابلة زملائي ودهشت لرفض السلطات ورفعت الأمر إلى مسئولين كبار وحصلت على الموافقة.

وعند لقائى بهم فى قسم الزيارات لم أذكر تفاصيل كثيرة وقررت أن أستشيرهم فقط بشأن عقد مباحثات مع الحكومة دون ذكر أن هناك لجنة قد شكلت بالفعل. وكان رد وولتر فاترا وعلق أنه يود لو أن المبادرة جاءت منهم بدلا من جانبنا وحاولت إقناعه ورأى أننى مصمم فقال إنه لن يقف فى طريقى ولكنه يرجو أن أعرف ما أنا بصدده. أما سهلابا فقد تساءل لماذا انتظرت طوال ذلك الوقت وكذلك كان رد ملانجين. أما كاثراذا فقد وقف ضد الاقتراح وقال إننا بتقديم المبادرة نبدو كأننا نُذعن وكان أكثر تصميما من وولتر واختتم قائلا إننى اتخذت الطريق الخطأ لكنه لن يقف فى سبيلى.

وبعد ذلك بقليل تلقيت رسالة مهربة من أوليفر تامبو قال فيها إنه قد سمع تقارير عن وجود مناقشات سرية بينى وبين الحكومة وإنه قلق ويعلم أننى قد ظللت وحيدا بعيدا عن زملائى لفترة من الوقت. وكانت مذكرته مقتضبة وفى لب الموضوع وكان يود أن يعرف ما أتباحث بشأنه ولم ترد احتمالية الشك فى خيانتى لكن لهجته كانت تدل على اعتقاده أننى أخطأت الحكم.

وأرسلت إليه خطابا مختصرا جدا أخبرته فيه أننى كنت أتباحث مع الحكومة حول نقطة واحدة فقط وهى عقد لقاء بين اللجنة المركزية للمؤتمر وحكومة جنوب إفريقيا ولم أخبره بالتفاصيل حيث إننى لم أكن أثق فى سرية المراسلات. وببساطة أخبرته أن الوقت قد حان للتفاوض وأننى لن أورط المؤتمر بأية طريقة.

-٩٣-

وعقد أول لقاء رسمي في نادي الضباط الفخم الملحق ببولسمور في مايو ١٩٨٨ ولم أكن قد رأيت ڤان ديرميروى أو بارنارد من قبل. وكان الأول هادئا متزنا لا يتكلم إلا عندما يكون لديه ما يقوله أما بارنارد فكان في منتصف الثلاثينات وكان شديد الذكاء والتحكم في النفس. واستمرت اللقاءات تعقد كل أسبوع لعدة أشهر وبعد ذلك كانت تعقد على فترات غير محددة وكانت تقل أحيانا وتزيد أحيانا أخرى وكانت الحكومة هي التي تنظم الاجتماعات ولكني كنت أحيانا أطالب بعقد جلسة، واكتشفت أنه خلافا لبارنارد لم يكن أحد من أعضاء اللجنة يعلم الكثير عن المؤتمر وكان جميعهم أفريكان منفتحي الأفق لكنهم كانوا ضحية الدعايات لذا كان من الضروري تصحيح بعض النقاط.

وشرحت لهم تاريخ المؤتمر ومواقفنا من القضايا الرئيسية الأمر الذي يجعلنا نختلف مع الحكومة وبعد ذلك بحثنا الكفاح المسلح والتحالف مع الشيوعيين وهدف حكم الأغلبية وفكرة التآلف العرقي.

واستغرقنا شهورا في مناقشة الكفاح المسلح حيث أصروا على أن يتخلى المؤتمر عن العنف قبل أن توافق الحكومة على المفاوضات وقبل أن ألتقي بالرئيس بوثا وأجبتهم بأن الدولة مسئولة عن العنف لأنها تستعمله وفي حالتنا فهو دفاع مشروع عن النفس وقلت إن الدولة إذا لجأت إلى طرق سلمية فسنستخدم طرقا سلمية. ورغم أنهم بدأوا يتفهمون تلك النقطة فقد بدأت أيضا العقبات العملية

للموقف. فقد كان حزب القوميين قد أعلن أنه لن يتفاوض مع منظمة تستخدم العنف فإن بدأوا مثل تلك المفاوضات فقدوا مصداقيتهم وقالوا إنه لكى نصل إلى نقطة بدء فعلى المؤتمر أن يقدم تنازلات لتستطيع الحكومة مواجهة شعبها. ورغم تفهمى لموقفهم فلم أقدم لهم الحل قائلا بأن مهمتى ليست حل مشاكلهم فإن عليهم أن يخبروا مواطنيهم أنه لن يكون هناك سلام بدون مفاوضات مع المؤتمر. أما بشأن تحالفنا مع الشيوعيين فقد بينت لهم أن المؤتمر والحزب منظمتان مختلفتان مستقلتان رغم اشتراكهما فى الأهداف القريبة المدى ولكن أهدافنا البعيدة المدى مختلفة. واستمرت المناقشة حول تلك النقطة أشهراً وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أنه بما أن معظم الشيوعيين بيض أو هنود فإنهم بالتالى يتحكمون فى أعضاء المؤتمر السود وحاولت دحض هذا الادعاء بالبراهين لكنهم لم يقتنعوا وأخيرا انفجرت قائلا إنه برغم كونهم أربعة بيض وأنهم ينظرون لأنفسهم على أنهم أذكياء فقد مضت أشهر دون أن يفلحوا فى تغيير رأيى.

وكانوا أيضا قلقين بشأن قضية التأميمات التى وردت فى ميثاق الحرية، فذكرت لهم إننا نهدف إلى توزيع أكثر عدالة لعائد بعض الصناعات التى هى فى الواقع احتكارات، وأن التأميمات ستنتصر على ذلك فقط. وذكرتهم بما كتبته فى صحيفة ليبراشن من أن الميثاق ليس إعلان مبادئ للاشتراكية لكن لرأسمالية إفريقية وأننى لم أغير رأيى منذ ذلك الوقت.

وتناقشنا حول الأقليات تحت حكم الأغلبية وكيف للمؤتمر أن يضمن حقوقها فذكرت لهم أن المؤتمر هو المنظمة الوحيدة فى جنوب إفريقيا التى تسعى إلى توحيد كل الأعراق وأنها تعتبر البيض إفريقيين ولا تريد أن تلقيهم فى البحر.

-٩٤-

وكانت النتيجة الإيجابية للمحادثات أننى علمت فى صيف ١٩٨٨ أن رئيس الجمهورية يخطط لزيارتى قبل نهاية أغسطس. وكانت البلاد فى حالة من الاضطرابات وأعادت الحكومة فرض قانون الطوارئ فى ١٩٨٧، ١٩٨٨ وكان الضغط الدولى يتعاظم وترك عدد أكبر من الشركات جنوب إفريقيا وأقر الكونجرس الأمريكى قانون مقاطعة شاملة.

وفى عام ١٩٨٧ احتفل المؤتمر بعيد ميلاده السابع والخمسين فى تنزانيا وحضره مندوبون عن أكثر من خمسين أمة وأعلن أوليفر أن المقاومة ستتعاظم حتى تعلن الحكومة استعدادها للمفاوضة لإلغاء الأبارتايد.

كان قد تم قبل عامين الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على الميثاق تم أثناءها انتخاب أعضاء من أعراق مختلفة للجنة المركزية ووعدت اللجنة ألا تتم أى مناقشات مع الحكومة حتى يفرج عن قادة المؤتمر.

وعلى الجانب الآخر زادت قوة الحزب القومى وكسب أغلبية ساحقة فى انتخابات ١٩٨٧ واحتل المحافظون بدل الحزب التقدمى مقاعد

المعارضة وكانوا يتهمون القوميين بالتراخي مع المعارضة السوداء.

ورغم تفاؤلي بشأن المحادثات السرية فقد كانت الأوقات صعبة وزارتني ويني وأخبرتني أن بيتنا في أورلاندو قد أُحرق وقد خسرنا بعض وثائق الأسرة القيمة. ومرضتُ بعد ذلك وقرر الطبيب نقلي إلى مستشفى تايجربيرج الجامعي في كيب تاون وسط حراسة مشددة. وبعد إخلاء المدخل تماما رافقوني إلى طابق كان قد أخلي أيضا ووضع به عدد كبير من الحرس خوفا من تعاطف الطلبة معي وأخبرني الطبيب أن إصابتي خفيفة وأنني يمكنني مغادرة المستشفى في اليوم التالي.

وفي الصباح حضر طبيب آخر وفحصني وقال إنه توجد مياه برئتي ثم نقلت إلى غرفة العمليات حيث تم تخديري وسحب ٢ لتر من المياه من صدري وبعد فحص السائل اكْتُشفت به جرثومة سل، ولكن مرضي كان مايزال في المرحلة الأولى وقال الطبيب إنه لن يلزمني أكثر من شهرين للشفاء ثم نقلت بعد أسبوعين إلى عيادة فخمة قرب بولسمور لم يدخلها أسود من قبل. وفي صباح يوم لي هناك تلقيت زيارة مبكرة من كوتسي برفقته الميجور ماريس الذي كان مسئولا عن حراستي.

وبعد استقراري في المستشفى بدأت الاجتماعات مرة أخرى بيني وبين كوتسي وأعضاء اللجنة. وأثناء وجودي هناك صرح كوتسي بأنه يريد أن يضعني في موقف أكون فيه في منتصف الطريق بين حالة التحفظ

والحرية. وشعرت أن ذلك يعنى خطوة على سبيل الحرية.

وكان المستشفى مريحا. واستمتعت لأول مرة بفترة نقاهتى. وكانت الممرضات البيض والملونات يفرطن فى تدليلى وكن يأتين لزيارتى حتى فى أوقات راحتهن. وحدث أن أخبرتنى إحدى الممرضات أنهن سيقمن حفلة ولابد أن أحضرها لكن سلطات الأمن منعت ذلك. فأقامت الممرضات الحفلة فى غرفتى.

-٩٥-

وفى بداية ديسمبر ١٩٨٨ شُددت الحراسة على جناحى فى المستشفى وفى مساء ٦ديسمبر أخبرنى رئيس الحرس أن أجهز نفسى للرحيل ولما سألته إلى أين أجاب أنه لا يعرف.

وغادرت المستشفى على عجل وبعد ساعة فى الطريق أُخذت إلى سجن فيكتور فيرستر فى الكيب القديمة التى تبعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا إلى الشمال الشرقى من كيب تاون. وكان سجنا نموذجيا ودخلناه بالسيارة حتى وصلنا إلى كوخ من طابق واحد يقع خلف جدار إسمنتى وتظلله أشجار التنوب الطويلة. وبالداخل كان هناك غرفة جلوس متسعة ومطبخ كبير وغرفة نوم أكثر اتساعا فى الجزء الخلفى. كما كان هناك حوض للسباحة فى الفناء الخلفى وغرفتا نوم صغيرتان إضافيتان. أما الشئ الوحيد الذى أفسد تلك الرعاية فكان الجدار الذى تعلوه الأسلاك الشائكة.

وبعد الظهر زارنى كوتسى وأحضر معه هدية بمناسبة انتقالى للمنزل

الجديد وتفقد المنزل وقال إن الجدار يجب أن يرتفع أكثر لضمان عزلتي وقال إن سبب نقلي هو إيجاد مكان لإجراء مباحثات في جو من السرية والراحة.

وكان المكان يوهم الفرد بالحرية فقد كان بإمكاني أن أنام أو أستيقظ حسب ما أريد، وأن أسبح، وآكل حينما أشعر بالجوع وكانت تلك مشاعر لذيذة. فقد كان من البهجة أن يتمكن المرء من الخروج أثناء النهار للنزهة حينما يريد. ولم يكن هناك قضبان أو مفاتيح تصلصل أو أبواب توصد وتفتح. ولكني لم أنس قط أنه قفص ذهبي.

وأمدتني السلطات بطاه وكان يعمل سابقا في جزيرة روبن. وكان ماهرا ويعد ولائم فخمة لمن يزورونى وكان عددهم قد بدأ في التزايد.

-٩٦-

واستمرت الاجتماعات مع اللجنة وتعثرنا بسبب نفس القضايا التي كانت قد منعت تقدمنا وهي المعركة المسلحة والحزب الشيوعي وحكم الأغلبية. وأخذت أحث كوتسي على ترتيب اجتماعي بالرئيس بوثا وكانت السلطات قد سمحت لي بإجراء اتصالات أولية مع زملائي في بولسمور وجزيرة روبن والمؤتمر في لوساكا فلم أكن أريد أن أتقدم على الطريق بمفردي.

وفي يناير ١٩٨٩ زارني رفاقي الأربعة من بولسمور وناقشنا المذكرة التي كنت على وشك إرسالها لرئيس الجمهورية، وكانت ترديدا للنقاط التي ناقشتها مع اللجنة ولكني كنت أريد التأكد من أن رئيس

الجمهورية قد سمعها منى مباشرة. اقترحت فيها معالجة مطالب الحكومة الثلاثة من المؤتمر كشرط لبدء المفاوضات وذكرت أن وقف أعمال العنف من قبل المؤتمر ليس هو المشكلة ولكن المشكلة هى أن الحكومة غير مستعدة بعد لمشاركة السود فى القوة السياسية وشرحت أسباب عدم رغبتنا فى الانفصال عن الحزب الشيوعى ذاكرا أننا لسنا تحت سيطرتهم ثم ذكرت أنه ليس هناك شخص شريف يتخلى عن صديق حياته نتيجة لإصرار عدو مشترك ويبقى على مصداقيته مع الشعب. وأضفت أن رفض حكم الأغلبية من قبل الحكومة هو محاولة للإبقاء على السلطة. واقترحت عليه أن يواجه الواقع ذاكرا أن حكومة الأغلبية والسلام هما وجهان لعملة واحدة وعلى جنوب إفريقيا البيضاء أن تقبل ذلك وفى النهاية تقدمت بإطار مبدئى للمفاوضات وهو معالجة قضيتين أساسيتين وهما مطلب حكومة الأغلبية والثانى قلق جنوب إفريقيا البيضاء من هذا المطلب بالإضافة إلى إصرار البيض على ضمانات بنيوية لضمان ألا تسود الأغلبية السوداء الأقلية البيضاء. وأضفت أن المهام الحرجة التى ستواجه الحكومة والمؤتمر هى محاولة التوفيق بين الموقفين. ثم اقترحت أن يتم ذلك على مرحلتين أولهما إجراء مناقشات لخلق ظروف مناسبة للمفاوضات وثانيهما إجراء المفاوضات ذاتها.

وكان أن حدث تأخير فقد أصيب الرئيس بوثا فى يناير بجلطة وهى إن كانت لم تعجزه فقد أضعفته. أصبح طبقا لوزرائه شخصا سريع الغضب ثم فجأة استقال كرئيس لحزب القوميين فى شهر فبراير وكان

ذلك موقفاً لم يحدث مثيله فى تاريخ جنوب إفريقيا حيث يصبح رئيس الأغلبية فى البرلمان رئيسا للجمهورية.

واستمرت أعمال العنف السياسية والضغط الدولى فى التعاظم. قام المسجونون السياسيون فى جميع أنحاء البلاد بإضراب عن الطعام - نتج عنه الإفراج عن تسعمائة منهم. وفى ١٩٨٩ كونت الجبهة الديمقراطية المتحدة تحالفا مع مجلس الاتحادات التجارية لجنوب إفريقيا وكونا الحركة الديمقراطية الجماهيرية MDM التى بدأت فى تنظيم حملة تحد وعصيان فى جميع أنحاء البلاد لتحدى قوانين الأبارتايد. وعلى الجانب الدولى أجرى أوليفر تامبو مباحثات فى بريطانيا والاتحاد السوفييتى وفى يناير ١٩٨٧ التقى بوزير الدولة الأمريكى جورج شولتز فى واشنطون واعترف الأمريكيون بالمؤتمر عنصرا لا يمكن الاستغناء عنه فى أى حل فى جنوب إفريقيا وتزايدت العقوبات ضد جنوب إفريقيا.

وكان للعنف السياسى جانبه المأساوى فبازدياد أعمال العنف فى سويتو سمحت زوجتى لمجموعة من الشباب أن يكونو حراسا خاصا لها أثناء تحركاتها فى المنطقة وكان أولئك الشباب غير مدربين وغير منظمين وتورطوا فى نشاطات غير لائقة بحركة التحرر. ونتيجة لذلك تورطت وبنى من الناحية القانونية فى محاكمة أحد حراسها الذى اتهم بقتل زميله. وقد تسبب ذلك الموقف فى إرباكى الشديد حيث إن فضيحة كتلك عملت على تفريق الحركة وقد كانت الوحدة شيئا أساسيا. وقد أيدت زوجتى تأييدا تاما وأكدت أنها رغم عدم حكمها

السليم فإنها بريئة من أية تهمة خطيرة.

وفى يوليو، وفى عيد ميلادى الحادى والسبعين زارنى جميع أفراد أسرتى فى السجن وكانت تلك أول مرة أجتمع فيها بزوجتى وأبنائى وأحفادى فى مكان واحد وكانت مناسبة عظيمة. وأعد الطباخ وليمة فخمة وكان ذلك مصدر سعادة عميقة لى رغم ألمى لأننى لم أنعم أبدا بمثل تلك المناسبات لسنوات طويلة.

-٩٧-

وفى ١٤ يوليو زارنى جنرال ويلمس وأخبرنى أننى سأذهب لمقابلة رئيس الجمهورية فى اليوم التالى ووصف الزيارة بأنها المجاملة. وطلبت حلة وربطة عنق من أجل المناسبة حيث إن الحلة الأخرى كانت قد اختفت. وأعددت نفسى بكل ما أملك وراجعت مذكرتى والملاحظات المطلوبة التى ألحقتها بها وقرأت صحفا كثيرة ومطبوعات للتأكد أننى على علم بما استجد. فقد حدث بعد استقالة الرئيس من رئاسة الحزب القومى أن أُنتخب دى كلارك مكانه وكان هناك حديث عن مناورات كثيرة بين الاثنين. وأخذت أتدرب على المحاورات التى قد يأتى بها رئيس الدولة وعلى ردودى عليها. فعند لقاء خصم فعلى المرء أن يتأكد أنه ترك الأثر الذى يبغيه.

وكان بوثا يُعرف بالتمساح الكبير وتخيلته نموذجا للأفريكانى المتكبر المتحجر الذى لا يناقش الأمور مع قادة أفارقة بل يملى عليهم ما يريد.

وفى الخامسة والنصف صباحا حضر مأمور القسم إلى غرفة الجلوس

حيث وقفت أمامه فى حلتى الجديدة للفحص وسار حولى ثم اعترض على الطريقة التى ربطت بها رباط عنقى حيث قد نسيت كيف أعالجها نظرا لطول إقامتى فى السجن. وقام المأمور بحلها وإعادة ربطها.

وذهبنا بالسيارة إلى منزل جنرال ويلمس فى بولسمور حيث قدمت زوجته لنا طعام الإفطار ثم ذهبنا إلى المكتب الرسمى لرئيس الجمهورية حيث أوقفوا السيارة فى الجراج تحت الأرض لكيلا يرانا أحد وقاموا بتهريبى إلى جناح رئيس الجمهورية وهناك قابلنا كوتسى وبارنارد ومجموعة من مسئولى السجون وكان كوتسى وبارنارد فى محادثات سابقة قد نصحانى أن أتحاشى القضايا الجدلية مع الرئيس. وبينما ننتظر نظر بارنارد إلى أسفل ولاحظ أن ربطة حذائى لم تكن كما يجب فركع على الأرض وقام بربطها وفتح الباب ودخلت وأنا أتوقع الأسوأ.

وفى الاتجاه المقابل فى مكتبه الفخم سار بوثا نحوى وكان قد خطط لسيره جيدا حيث التقينا فى منتصف الغرفة تماما. ومد إلىّ يده مبتسما وفى الحقيقة فقد سرنى منذ اللحظة الأولى فقد كان مجاملا مبجلا وودودا.

وبسرعة وقفنا لالتقاط صورة لنا نحن الاثنين ونحن نتصافح وبعد ذلك لحق بنا كوتسى وويلمس وبارنارد على المائدة المستطيلة وبدأنا الحديث، وبدونا كما لو كنا فى حلقة دراسية ولسنا فى مناقشة سياسية مربكة ولم نناقش القضية الجوهرية بقدر حديثنا عن تاريخ

وحضارة جنوب إفريقيا وذكرت أننى قد قرأت مؤخرا مقالا فى مجلة أفريكانية عن ثورة الأفريكان عام ١٩١٤ وعن احتلالهم لمدن فى الولاية الحرة وذكرت لهم أننى أرى فى حركتنا توازيا مع تلك الحركة. وكانت وجهة نظرهم أن عصيانهم كان شجارا بين أخوين أما معركتنا فهى ثورية فقلت إنه يمكن النظر إليها على أنها معركة بين أخوين من لونين مختلفين ولم يستمر الاجتماع أكثر من نصف ساعة وكان مليئا بالود واللطف حتى النهاية. وهنا أثرت قضية الإفراج عن جميع السجناء السياسيين وكانت تلك هى لحظة الارتباك الوحيدة فى الاجتماع وأجاب بوثا أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.

ثم ناقشنا بإيجاز ما يجب قوله إذا تسربت أنباء الاجتماع وقمنا بكتابة بيان موجز قلنا فيه إننا تقابلنا لتناول الشاى فى محاولة لنشر السلام فى البلاد. وبعد ذلك صافحنى بوثا وشكرته وذهبت بالطريقة التى أتيت بها. وشعرت أنه رغم عدم تقدم المباحثات فلا مجال للعودة للوراء.

وبعد أكثر من شهر بقليل ذهب بوثا إلى التليفزيون القومى ليعلن استقالته من منصب رئيس الجمهورية واتهم فى خطابه الوداعى أعضاء وزارته بأنهم يتيحون الفرص لأعضاء المؤتمر. وفى اليوم التالى حلف دى كلارك اليمين كقائم بأعمال رئيس الجمهورية وأكد التزامه بالإصلاح والتغيير.

وبالنسبة لنا فلم يكن دى كلارك يعنى شيئا ولم يكن هناك فى تاريخه ما يشير إلى روح الإصلاح. وكوزير للتعليم فقد حاول منع الأفارقة من الالتحاق بجامعات البيض. ومن خطاباته وكلماته بعد توليه رئاسة الحزب القومى تبينت أنه ليس شخصا أيديولوجيا بل شخصا براجماتيا، رجلاً رأى أن التغيير ضرورى لا محالة.

وفى اليوم الذى حلف فيه اليمين كتبت له خطابا أطلب مقابلته. وكان قد قال فى خطابه الأول إن حكومته ملتزمة بالسلام ومستعدة للتفاوض مع أى مجموعة تلتزم بالسلام. ولكن برهن على التزامه بنظام جديد حينما نظمت مسيرة بعد تنصيبه للاحتجاج على وحشية الشرطة بقيادة الأسقف توتو والمبجل آلان بوساك وكانت مثل تلك المسيرة لابد وأن تُمْنَع تحت حكم بوثا وكان المشتركون لابد وأن يتحدوا المنع مما كان سيؤدى إلى أعمال عنف. لكن الرئيس الجديد نفذ ما وعد به وسمح للمسيرة أن تحدث فقط طلب من المشتركين أن تظل المسيرة سلمية.

-٩٨-

وبعد تولى دى كلارك الرئاسة استمرت الاجتماعات بينى وبين اللجنة ولحق بنا جيريت فيلجون وزير التطورات الدستورية وكان رجلا نابها ويحمل الدكتوراه فى الكلاسيكيات وكان دوره أن يؤطر مناقشاتنا فى إطار دستورى.

وأعدت مطلبى بشأن إطلاق سراح المسجونين السياسيين فى

بولسمور وجزيرة روبن بدون شروط ذاكرا أن للحكومة أن تتوقع منهم تصرفات نظامية بعد إطلاق سراحهم كما أثبت ذلك جوفان مبيكى وكان قد أطلق سراحه فى نهاية ١٩٨٧.

وفى أكتوبر ١٩٨٩ أعلن دى كلارك إطلاق سراح ريموند مهلابا وأحمد كاثرادا وأندرو ملانجيين وإلياس موتسوليدى وجيف ماسيمولا وولتن مكوايى وأوسكار مبيثا. وفى ذلك الصباح زارنى وولتر وكاثرادا وريموند وأندرو وكانت لحظة مشحونة بالعواطف. ولكنى كنت أعرف أن دورى قد اقترب.

وكان الإفراج عنهم مقرونا بعدم الحظر أى أنه كان بإمكانهم التحدث باسم المؤتمر مما كان يعنى رفع الحظر عن المنظمة نفسها.

وبدأ دى كلارك يهدم قوالب بناء الأبارتايد ففتح شواطئ جنوب إفريقيا للمواطنين من جميع الألوان ووعد بإلغاء القانون الذى لا يسمح بالاختلاط فى الحدائق والمسارح والمطاعم والحافلات والمكتبات والمراحيض وغيرها من المنشآت العامة وفى نوفمبر أعلن حل إدارة الأمن القومى السرية التى كان قد أنشأها بوثا لمجابهة قوى المعارضة للأبارتايد.

وفى أوائل ديسمبر أُبلغت بأننى سأقابل دى كلارك فى الثانى عشر من ذلك الشهر وأنه يمكننى فى تلك الأثناء التشاور مع زملائى القدامى والجدد وعقدت اجتماعات معهم ومع قادة المنظمات الأخرى الموالية للمؤتمر ومع رجال المؤتمر من جميع الأقاليم. ومن بين من

قابلتهم كان سيرل رامفانوسا السكرتير العام للاتحاد القومى لعمال المناجم وأحد أقدر قيادات الجيل الجديد كما زارنى زملاء من جزيرة روبن ومن بين هؤلاء «رعب» ليكوتا وطوكيو سيكسويل.

وبإرشاد عدد من الزملاء كتبت خطابا إلى كلارك يماثل ذلك الذى كتبته لبوثا عن المباحثات بين الحكومة والمؤتمر وذكرت عدم قبولنا اشتراطات مسبقة للمفاوضات وخاصة وقف الكفاح المسلح. وذكرت أن أول خطوة للتوافق هى هدم الأبارتايد وجميع ما يدعمه. ثم أضفت أنه لم يتخذ خطوات لدعم الأمل الذى أحياه خطابه الافتتاحى ولكن بدلا من ذلك فإن الحكومة تعقد المحادثات مع القيادات السوداء للبانتوستانات الإفريقية. تلك القيادات الظالمة التى ترفضها جماهير جنوب إفريقيا السوداء. ورددت اقتراحى بشأن مرحلتى المحادثات وقلت إننى أؤيد الخطوط التى تبناها المؤتمر فى إعلان هرارى لسنة ١٩٨٩ الذى حمل الحكومة مسئولية إزالة العقبات التى أوجدتها الدولة من طريق المحادثات وأن تلك المطالب تتضمن الإفراج عن المسجونين السياسيين ورفع الحظر عن المنظمات والأشخاص وإنهاء حالة الطوارئ ونقل القوات من المناطق الإفريقية وقلت إن اتفاقا لوقف إطلاق النار من الجانبين يجب أن يكون أول خطوة فى العمل. وسلّم الخطاب إلى دى كلارك قبل اجتماعنا بيوم.

من البداية لاحظت أن دى كلارك كان ينصت لما أقول. وأكدت فى حديثى معه على خطة الخمس سنوات لحزب القوميين الخاصة بحقوق المجموعات والتى ترتكز حول فكرة عدم أحقية أى مجموعة عرقية فى

التفوق على أى مجموعة أخرى.

ورغم تعريف الخطة «لحقوق المجموعات» على أنها وسيلة لحماية حقوق الأقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة فإن الهدف الحقيقى منها كان الحفاظ على سيادة البيض. وأخبرت دى كلارك أن ذلك أمر لا يقبله المؤتمر وأضفت أن ذلك يعطى انطباعا أنه يريد تحديث الأبارتايد دون التخلى عنه، وأن النظام الظالم لا يمكن إصلاحه ولكن يجب التخلى عنه. وأضفت أن المؤتمر لم يقاوم الأبارتايد لمدة خمسة وسبعين عاما لكى يخضع لشكل مستتر منه.

وكانت من مميزات دى كلارك أنه أنصت لما قلت دون أن يناقش ثم قال لى إن هدفه لا يختلف عن هدفى وذكر أن مذكرتى إلى بوثا ذكرت أن علينا معالجة مخاوف البيض من سيادة السود وأن قانون حقوق المجموعات هى طريقته لمعالجة تلك المشكلة. ولكنى قلت إن الفكرة تزيد من مخاوف السود أكثر من إزالتها لمخاوف البيض فرد قائلا إن عليه إذن تغيير القانون.

ثم ناقشت بعد ذلك موضوع حريتى وقلت له إن كان يتوقع أن أذهب إلى المراعى بعد الإفراج عنى فهو مخطئ ذاكرا أنه إذا تم الإفراج عنى تحت نفس الظروف التى دخلت فيها السجن فإننى سأفعل ما فعلت وأدى بى إلى السجن.

وقلت له إن أفضل ما يمكن عمله هو رفع الحظر عن المؤتمر والمنظمات الأخرى ورفع حالة الطوارئ والإفراج عن السجناء والسماح للمنفيين

بالعودة فإنه إن لم ترفع الحكومة الحظر عن المؤتمر فإنى سأعمل لمنظمة محظورة بعد الإفراج عنى.

ورد قائلا إنه سيتدارس الأمر لكنه لايستطيع الوعد بشئ. وكانت المقابلة استطلاعية حيث كنت أعرف أنه لن يتخذ قرارا ذلك اليوم. وكتبت إلى زملائى فى لوساكا قائلا إن دى كلارك يمثل تغييرا عمن سبقوه فى قيادة الحزب القومى ثم اقتطفت ما قالته تاتشر عن جورباتشوف من أنه رجل يمكن العمل معه.

-٩٩-

فى ٢ فبراير ١٩٩٠ وقف دى كلارك ليلقى خطاب الافتتاح أمام البرلمان وفعل حينئذ ما لم يفعله أى رئيس لجنوب إفريقيا من قبل فقد بدأ فى هدم نظام الأبارتايد ووضع أسس جنوب إفريقيا الديمقراطية. فقد أعلن بطريقة درامية رفع الحظر عن المؤتمر والـPAC والحزب الشيوعى الإفريقى وإحدى وثلاثين منظمة أخرى قانونية والإفراج عن السجناء السياسيين المحجوزين بسبب نشاطات غير أعمال العنف وتعليق عقوبة الإعدام ورفع كافة القيود المفروضة بسبب حالة الطوارئ ثم قال إن الوقت قد حان للتفاوض. وبذلك، وبخطوة شاملة واحدة طبع دى كلارك الوضع فى جنوب إفريقيا وتغيرت الحياة فى ليلة واحدة.

واستحسن العالم خطوات دى كلارك الجريئة. لكن وسط تلك الأنباء الطيبة احتج المؤتمر على عدم رفع حالة الطوارئ رفعا تاما وعلى عدم سحب القوات من المناطق الإفريقية.

وفى يوم ٩ فبراير أبلغت أنى سأقابل دى كلارك ووجدته مبتسما فى مكتبه وتصافحنا وأبلغنى أنه سيفرج عنى فى اليوم التالى. فأجبته قائلا إنه بالرغم من أننى قد أبدوا ناكرا للجميل فإننى أفضل أن أبقى فى السجن أسبوعا آخر حتى تستعد أسرتى ومنظمتى لإطلاق سراحى لأن إطلاق سراحى بتلك الطريقة قد ينجم عنه حالة من الفوضى. وأدهشت إجابتى دى كلارك ولكنه استمر فى تفاصيل خطة الإفراج عنى وقال إن الحكومة ستنقلنى بالطائرة إلى جوهانسبرج وسيتم الإفراج عنى رسميا هناك. ولكنى عارضت ذلك فقد كنت أريد أن أخرج من بوابة سجنى الحالى لأتمكن من شكر هؤلاء الذين رعونى هناك وأحيى أهل كيب تاون فرغم أننى من جوهانسبرج فقد كانت كيب تاون موطنا لى لما يقرب من ثلاثة عقود وكنت أريد أن أجد طريقى إلى جوهانسبرج حينما أريد وليس فى الوقت الذى تريده الحكومة. فقلت له إننى أعرف كيف أرعى نفسى حينما يطلق سراحى مما أصابه بالدهشة مرة أخرى فترك مكتبه للتشاور مع الآخرين وعاد قائلا إن الوقت قد تأخر بالنسبة لتغيير الخطة فرددت مطالبى وكانت لحظة حرجة ولم يتمكن أحد منا وقتها أن يرى المفارقة الناتجة عن طلب السجين عدم الإفراج عنه بينما يحاول السجان تنفيذ الإفراج. وخرج من الغرفة مرة أخرى وعاد بعد عشر دقائق ليقول إنه بالرغم من إمكانية الإفراج عنى من سجنى الحالى فإن عملية الإفراج لن تتأجل فقد تم إبلاغ الصحافة الأجنبية بموعد الإفراج. وقبلت.

ولم أعد إلى كوخى إلا قبيل منتصف الليل حيث أبلغت زملائى فى كيب تاون نبأ الإفراج عنى وبعثت رسالة إلى ويني وتحدثت هاتفيا مع وولتر فى جوهانسبرج وفى ذلك المساء حضر أعضاء ما عرف بلجنة الاستقبال القومية من المؤتمر إلى الكوخ لكتابة البيان الذى سألقيه صباح اليوم التالى وذهبوا فى ساعات الصباح الأولى.■